مقدمة في الأدب الإسلامي

الملخص :
تسعى هذه القراءة إلى متابعة سؤال معرفي وجمالي يحـــــــــاول مقاربة المفاهيـــم المستـــقاة مـــــــن الإسلام و توظيفـــها نقديا، فهل ـــيمكن الاطمئنـــــان إلى وجود أدب إسلامي؟ و هل يمكن تميـــيـــزه من غيره ؟

أ.عبد الحفيظ بورديو

قسم اللغة العربية

كلية الآداب

و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

- جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان-

1- مقدمة في المنهج:

قبل البدء، لابد من تحديد المرتكزات المعرفية التي تصنع المفاهيم التأثيلية للأدب الإسلامي في مقصديه الجمالي والدلالي.

إن التأسيس المنهجي يجعل الارتكاز إلى القرآن الكريم ضرورة تقتضيها معادلة الصواب والصدق. وهي ذاتها المعادلة التي تنقل الأدب الإنساني من فوضى التعبير إلى الرشاد والصواب. يقول تعالى: { الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان }.1

إن هذه الآيات البينات تنشئ ترتيبا قيميا في ذهن المتلقي. إن النظم النحوي يسمو بمرتبة المعمولات حين يلحقها بالرحمان مبتدأ. والربط بين القرآن والإنسان ثم بين الإنسان وبين البيان هو تأسيس لنموذج ثقافي متميز يسمو فيه الإنسان إلى غاية الغايات-غاية الإعجاز- وليس ذلك بممكن إلا بوساطة منهج يجعل للبيان سحرا على القلوب وسلطانا على العقول فلا يلبث أن ينتقل من مستوى الدهشة وأسرها إلى مستوى التمثل السلوكي للمعاني والقيم. والبيان هو شكل من أشكال التعبير الجميل أي الأدب.

2- أزمة الأدب الإنساني:

لقد دفع التوتر الإنساني الحادث والمميز للحضارة المعاصرة إلى الخوف على مستقبل البشرية، فمن الباحثين من تنبأ بتدهور الحضارة الغربية ومنهم من جزم بسقوطها، ومنهم من قال بنهاية التاريخ، لذلك صارت كتاباتهم تركيزا على بعث الوعي بضرورة العودة إلى الله

وسار الأدب العربي في هذا الاتجاه على استحياء، وتمثل في توظيف الأساطير من جهة وأناشيد قدّاس الكنيسة من جهة أخرى.

فأما توظيف الأساطير فهو محكوم بمعيار معرفي مفاده أنّ "معظم النصوص التي نستقي منها معرفتنا بالأساطير قد عثر عليها في المعابد"2 كما يقول هـــ.ص.روك فالتوظيف الأدبي

المعاصر للأساطير هو رفض لهيمنة المادية التي تحكم العالم وتسبب الانفصال وعودة إلى البدائية حيث يعتقد أن الإنسان كان متجانسا مع القوى الكونية.

وأما توظيف اناشيد القداس الكنسية فيتجلى في كتابات هوغو ودوموسييه ودوفينييه وكلوديل وت.س.إليوث وفرجينيا...وغيرهم كثير. وهو إشارة إلى أن الإنسانية فقدت مقوّمات استمرارها النوعي حيث استجابت للثورة اللادينية، ولا يمكنها أن تتخلص من أخطارها إلا بالعودة إلى تقمص القيم الدينية، أو إلى إنشاء علاقة جديدة بين الشعر والدين كما يقول كولن ولسون.

ولمّا كان أدب الأساطير يصدر من رؤية وثنية بينما تصدر أناشيد القداس من رؤية كنسية محرّفة، فإن أدب التناغم والانسجام بقي بعيد التحقق وصعب الإنجاز، ومردّ ذلك إلى أنه حركة من الجزء إلى الكل دون أن يستوعب الجزء ذاته وقد ادّعى أنه استوعب الكل.

ومن هنا يصبح الحديث عن الأدب الإسلامي لاتقوقعا على الذات وانغلاقا، وإنما ضرورة وجوده ورسالة حضارية تخرج الناس من المعيشة الضنك والقلق العدمي إلى معيشة مرضية موصولة بحرث الآخرة.

3- وقفة مع المصطلح:

من الألفاظ ما يظل التنكير الدلالي غالبا عليها ولو دخلتها ألف ولام التعريف، فتحتاج إلى صفة نحوية تخرجها من الضبابية إلى الاصطلاح، ومثال ذلك قولنا الأدب، فالاختلاف في تعريف ماهيته وتوضيح طبيعته وتحديد وظائفه اختلاف قديم ومتجدد. فنحن لا نقف على تعريف واحد يتفق عليه جميع الدارسين، الأمر الذي دفعهم إلى تقييده بصفة تكون معيارا للحكم له أو الحكم عليه. ومن هنا نشأت المذاهب التي أضافت صفتها إلى الأدب، فهذا الأدب كلاسيكي، وذلك أدب رومانسي، وثالث أدب واقعي ورابع أدب عبثي...إلى غيرها من الآداب.

فالصفة هي الثقل المعرفي الذي يضبط ماهية الأدب ورسالته.

وقولنا الإسلامي هي الثقل المعرفي الذي يضفي الصفاء وينفي الضبابية؛ ذلك أن الأدب حركة من داخل الإنسان تستجيب لتجربة شعورية أو موقف عقلي. وهذه الحركة غير مأمونة العواقب إذا وقفت عند تلك المقدمات الثلاث، لأنها نسبية وغير كلية، فتظل أفقية محكومة بالجاذبية الأرضية.

والإسلامي -نسبة إلى الإسلام- مثاني كلية صدر عن خالق الإنسان والأكوان، ولذلك فهو حركة من خارج الإنسان تمدّه بالصوابّ وتخرجه من التشوش والفوضى.

ونتيجة لهذا فإن الأدب الإسلامي هو التعبير الفني ا لذي يستلهم الوحي الثابت ويحقق انسجام الحركتين وتطابق الإرادتين.

وبعبارة أخرى إن الأدب صعود من الأرض إلى السماء، والإسلامي هبوط من السماء إلى الأرض..

4- الأدب الإسلامي جمال معرفي:

يسارع كثير من المهتمين بالأدب إلى القول إن الأدب تعبير فني يختلف عن الفلسفة والتاريخ والعلوم والدين من حيث كونه يسعى إلى أن يكون جميلا. والجميل في عرفهم غير حامل للمعرفة لأنها مرتبطة بالمنفعة.

وغير خفي أن هذه المقولة وليدة فلسفة إ.كانط التي كانت نقدا للعقل الخالص وتحطيما للنظام الفلسفي الذي أرادت تشييده الفلسفات اليونانية القديمة بإيجاد ارتباط عضوي بين [الجميل والحق وللخير].

وإن نحن أمعنا النظر في موقف إ.كانط من ضرورة فصل الجميل عن الحق (المعرفة) والخير (المنفعة) لعلمنا أن سبب ذلك هو قصور الفكر الغربي فلسفة وأديانا عن إدراك المطلق. وتعدد معايير الحق ومعايير الخير التي بلغت حد التناقض والتصادم والتناحر أوحت لكانط أنها معايير نسبية، ومن هنا كان تركيزه على الجميل المفرد لعله يحقق بوساطته المطلق.

فالقول إن الجمال غير حامل للمعرفة هو ناتج عن تشوش الفكر الغربي وفوضاه.

أما الإسلام – الذي هو دين الله المحفوظ كتابه من أيّ تحريف– فقد ظلت معاييره للحق والخير والجمال مطلقة.

ومن هنا فإن نحن أخذنا بمقولة فصل الجمال عن المعرفة والمنفعة وألزمنا بها الأدب الإسلامي نكون قد خرجنا بها من دائرة التشويش الذي أوجدها وألزمنا بها دائرة الصفاء. وفي هذا خطر على الصفاء أن يصبح مشوشا لأننا نكون كمن زرع عضوا غريبا في جسم لا يماثله.

والقارئ في مقدمة ابن خلدون يجده يقول محددا معيارا جماليا طالما أغفله كثيرون، وهو قوله: "بمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة"3. هذا منطوق كلامه، وأمامفهومه فإنه كلما اقترب الشعر من طبقة الفائدة اقترب من رتبة البلاغة.

ولئن كان لبيد قد عزف عن قول الشعر حين سرت قشعريرة الانبهار بالقرآن في مداركه؛ فإن حسان بن ثابت تحوّل عنده ذلك الانبهار إلى طاقة إبداعية صرفته عن المعلقة الجاهلية التي كانت تمثّل النموذج الجمالي، إلى بداية التأصيل للقصيدة الإسلامية التي تتخذ القرآن نموذجا لها.

وإذا كان أثر القرآن جليا في شعر المخضرمين في معانيهم ومعجمهم الدلالي، فإنني أحبّ أن أشير– في هذه العجالة– إلى قوله:

فدع الديار وذكر كل خريدة
بيضاء آنسة الحديث كعاب
واشك الهموم إلى الإله وما ترى
من معشر متألبين غضاب 4

ليكون بذلك أوّل شاعر عربي ثار واعيا على المقدمة الطللية مقدما البديل وهو المتمثّل في استمداد العون والقوة من الله، أو بمعنى آخر: تحديد الرؤية الكلية للوجود. وهذه الحركة الإيمانية جديدة كل الجدّة عن الشعر العربي وبنائه الفني.

وتعجبني في هذا الصدد تلك الملاحظة الذكية التي سجّلها ابن خلدون حين أكّد أن شعر الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من شعر الجاهليين، وأنّ الطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان على ذلك، ويعلل لذلك بأن الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث 5وهو بلغتنا إن الشاعر الإسلامي أسقط نموذج المعلقة وأقام نموذج الإعجاز.

ونخلص من هذا كله إلى أن الأدب ليس دعوة إلى مضمون توحيدي فحسب، ولكنه تأسيس لمقاييس جمالية مختلفة عن تلك التي تقدّمها الحضارة الغربية اليوم، وكما أن القرآن الكريم أعجز الثقلين بروعة معانيه وتناسق كلماته فإن الأدب الإسلامي مسؤول عن تحقيق تلك الجمالية، أو على الأقل هو مسؤول عن محاولة الاحتذاء به لتحقيق ما يقارب تلك الروعة وذلك التناسق وفق المعادلة التي صاغها الفيلسوف المسلم رجاء الله غارودي:

في الاسلام كل الفنون تؤدي إلى المسجد و المسجد يؤدي إلى الصلاة 6

ولا أحسبني أجانب الصواب إذا قلت إنه لا يمكن وصف أدب بأنه إسلامي إذا هو حقق مضمونا توحيديا وأسقط من حسابه الجمالية، كما لا يمكن أن يكون الأدب إسلاميا إذا حقق الجمالية وأسقط المضمون التوحيدي. لأن الارتباط بينهما عضوي كما أن الارتباط بين الجمال والصلاة ارتباط عضوي ، و مصداق ذلك قول الله تعالى:

{ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد}7

5- وعود الأدب الإسلامي:

إن الكتابات الإسلامية التي تنبثق من التصور الإسلامي قدّمت للإنسانية نماذج رائعة لعلها تكون نواة الأدب الإسلامي الذي بإمكانه أن يعيد للإنسان إحساسه بالانتماء وينقي عنه هذا الانسحاق المأساوي أمام أطروحات الحداثة التغريبية، ليس هذا فحسب، ولكن بإمكانه أيضا أن ينقذ الإنسان المعاصر من وحل الانهيار الشامل في الفكر والذوق والسلوك، وذلك بما يرسمه من نماذج للصفاء والنقاء، وبما يبعثه من أمل القدرة على تحقيق قيم الطهارة والتناغم والأمان والخلود، والتي تختصرها كلمة الإيمان.

6- إشارة تضيق عنها العبارة:

وختاما أحب أن أشير إلى أنّ:

* الأديب المسلم تقع عليه مسؤولية تحقيق الجمالية القرآنية.

* الناقد المسلم تقع عليه مسؤولية اكتشاف ما يقارب تلك الجمالية في الآداب الإنسانية.

فالأديب المسلم لا يخرج عن التصور القرآني بل يصدقه، ولكن الأديب غير المسلم قد يهتدي إلى رؤية قد تقترب من التصور القرآني كشأن طاغور وهوغو وغيرهما، أو كشأن أمية بن أبي الصلت الذي يصدق فيه القول الحكيم: " آمن شعره وكفر قلبه".

الهوامش:

1/الرحمن:1..4 منعط

2/ص.هووك :ف المحيلة البشرية ،تر. صبحي حديدي ، دار الحوار ، دمشق 1983ط1ص10

3/ ابن خلدون :المقدمة ، الدار التونسية للنشر ،دت ج2 ص745

4/حسان بن ثابت : الديوان ، تح عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت

5/ المقدمة ص751

6/ رجاء الله غارودي : وعود الاسلام ،تر محمد حسن الأمين ،الدار العالمية بيروت 1984 ، ط 1ص182

7 /الأعراف/31